دور التّراث بإفريقية في ترسيخ الحوار الثّقافي والحضاري بين الشّعوب

بقلم د. جمعة شيخة

هناك كلمتان محوريّتان في عنوان المداخلة لا بدّ من الوقوف عندهما لنضبط حدودَهما وأبْعَادَهما حتّى يتسنّى لنا أن نتكلّم في حيّز زماني ومكانيّ ومَعرفي معيّن. هاتان الكلمتان هما « التّراث- إفريقيّة » :

أمّا كلمة « تراث »: فهي لغة مصدر من وَرِثَ حسب ابن منظور في لسان العرب [1]، وأصل التّاء فيه واو. وفي المعجم الوسيط التّراث هو الإرث[2].

وإذا ما لجأنا إلى بعض الظّواهر الصّوتيّة، وما توحي به من آراء فإنّ في الإمكان أن نُقارن بين لفظ الإرث واللّفظ الإنقليزي Earth (بمعنى الأرض)، وأن نقارن بينهما وبين المدلول العربي لكلمة أرض. فالشّبه- كما هو ملاحظ- في الصّوت والمبنى واضح وهو يشير إلى قرابة في المدلول والمعنى [3].

(1) ابن منظور: لسان العرب. ط. بيروت 1955. ج. 200/7.

(2) المعجم الوسيط. ط إسطمبول 1984. ج2/ 1024.

(3) د. محمد سويسي: نحن والتراث. مقال نشر ضمن كتاب "التراث ودوره في البناء الحضاري المعاصر" ط. تونس بدون تاريخ ص 126.

وهذا يفضي بنا إلى مفهوم التّراث اصطلاحا: فهو يشمل الأرض التي نعيش عليها. ويضمّ ما أُنْشِئَ على هذه الأرض من مَعَالِمَ، وما قام على ظهرها من آثار، وما حُفظ في بطنها من خبايا وخيرات، وما ابْتدعه عقلُ أربابـــها من مبتكرات، وما صنّفوه من تأليف، وما سَجّلوهُ من رُسوم، وَما خطّوه من مناهج وفتَحوه من سُبُل ونظّموه من مسالك وطرق [4].

والتّراث بعبارة أخرى يشمل كلّ ما خلّفته لنا الأجيال السّابقة في مُختلف الميادين الدّينيّة والفكريّة والأدبيّة والعلميّة والمعماريّة وأثر ذلك في أخلاق الأمّة الوارثة وعقليّاتها وأنماط عيشها وسلوكها [5].

والتّراث في معناه العامّ وباختصار شديد هو جَماع التّاريخ المَادّي والمعنوي للأمّة منذ أقدم العصور إلى اليوم [6].

أمّا كلمة إفريقيّة فالمقصود بها المغرب الأدنى أي البلاد التّونسيّة مع امتداد نسبي في حدودها الشّماليّة الغربيّة في أرض الجزائر وحدودها الجنوبيّة الشّرقيّة في أرض ليبيا.

وبهذه النّظرة الشّموليّة للتّراث بإفريقيّة، لا يمكن حصره في التّراث العربي الإسلامي. فهذا الحصر لا يخلو من تعسّف فهناك حضارات وثقافات عريقة تعاقبت على مرّ العصور بهذه الرّبوع بصفة خاصّة وفي حوض البحر الأبيض المتوسّط بصفة عامّة وأثّرت فينا وبقي لنا منها تراث نعتزّ به كالحضارة الفينيقيّة والرّومانيّة. وأقربُها إلينا زمانا وأقواها تأثيرًا الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

(4) المرجع السّابق.

(5) د. سعد غراب: كيف نهتمّ بالتراث؟ نشر في المرجع السّابق ص 137.

(6) د. غالي شكري: التراث والثروة. ط بيروت 1979 ص 29.

ومن هنا كان من الصّعب أن نتكلّم عن تراث عريق وأصيل يمتدّ على آلاف السّنين في مداخلة وجيزة كهذه. لهذا نحن مجبورون على اختيار بعض المحطّات لهذا التّراث، ومن هذه المحطّات بعض النّماذج كان لها دورها الواضح الجليّ في الحوار الحضاري والثّقافي بين حوضي البحر الأبيض المتوسّط. وتراءت لنا من هذه المحطّات ثلاث هي: محطّة قرطاج، ومحطّة القيروان، ومحطّة تونس.

1- **محطّة قرطاج** :إنّ التّراث بإفريقيّة قبل الفتح العربي هو مجال له من المتخصّصين بيننا ما يجعلنا نهاب الحديثَ عنه حديثَ العارفين به والمتعمّقين فيه. لذا سأكتفي فقط بالإشارة إلى جانب هامّ في هذا التّراث مازال قائم الذّات بيننا إلى اليوم ونعني بذلك التّراث المعماري المنتشر في كامل الجمهوريّة من معالم قرطاج وآثار دقة إلى قصر الجم ومعبد سبيطلة الخ ... زيادة على ما تضمّه متاحفنا من روائع جعلت بلادَنا أكْبَرَ مدخّر لفنّ الفسيفساء في العالم.

إنّ هذا التّراث الثّريّ الذي يقف أمامه آلاف الزّوّار- وقد فُتنوا- بكلّ تأمّل وإعجاب، وينظرون إليه -وقد سحروا- بكلّ إجلال وخشوع، لَهُو تراث يقوم بدوره وبطريقته الخاصّة في ترسيخ حوار ثقافي وحضاري بين الشّعوب كان ومازال وسيبقى لأنّه حوار النّفوس البشريّة وقد تخلّصت من أدرانها أمام إبداع العقل الإنساني مجسّما فيما بقي من تلك الآثار التي قاومت الزّمن وصمدت أمامه عبر العصور.

أمّا بالنّسبة إلى الآثار المكتوبة نكتفي بالإشارة إلى كاتبين جليلين هُما أبلي Apulée الوثني وسانت أوغستان المسيحي.فهما، وإن انتسبا إلى حضارتين يراهُما بعضهُم خطأ أنّهما أجنبيّتان عنّا، من أبناء هذا البلد الطّيّب يحقّ لنا أن نعتزّ بهما ونفتخر بآثارهما، كما نعتزّ بعبقريّة أخرى هي عبقريّة حنّبعل في مجال القيادة

العسكريّة، فقد كان تراثه ومازال محلّ عناية ودراسة في أغلب الجامعات بأروبّا وغيرها المهتمّة بالتّاريخ العسكري عبر العصور.

إنّ تراث إفريقيّة قبل الفتح العربي كان ومازال عاملا قويّا في ترسيخ الحوار الثّقافي بين ضفّتي البحر الأبيض المتوسّط بل يمكن القول: إنّهُ أصبح من التّراث الإنساني الخالد الذي نعتزّ به وتتجاوب معه البشريّة جمعاء.

2- محطة القيروان : إنّ تأسيس القيروان في وسط إفريقيّة هو إيذان بأنّ عهدا جديدا قد بدأ في هذه الرّبوع بما فيه من تعاليم دينيّة وقِيَم أخلاقيّة ومبادئَ فكريّة وأسس حضاريّة.

وتراث إفريقيّة الذي نشأ خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة بصفة خاصّة وما بعدها بصفة عامّة هو جزء من تراث العالم العربي الإسلامي، إنّه فرع من أصل. وهذا الفرع شديد الاتّصال بالأصل. وعمليّة التّأثير والتّأثّر بينهما كحركة المدّ والجزر أخذا وعطاء، سلبا وإيجابا.

والقيروان في المجال الدّيني مثّلث مرفأً لتيّارات فكريّة مختلفة بين الشّرق والغرب، ولعب علماؤها، وخاصّة سحنون ثم ابن أبي زيد القيرواني، دورًا بارزا في تركيز أحد هذه التّيارات الفكريّة وهو المذهب المالكي لا في إفريقيّة فحسب بل بكامل بلاد المغرب بما فيها الأندلس. ولعلّ تأثيره وصل عن طريق بعض علمائه إلى أقصى الجنوب من بلاد المغرب ومنها إلى بلاد السّودان.

ومن حسن الحظّ أن وصل تيّار ثان من المشرق العربي إلى القيروان بإفريقيّة. و لم يكن تيارًا مذهبيّا دينيّا. بل كان علميّا بصفة عامّة. طبّيّا بصفة خاصّة. كان ذلك في عهد الدّولة الأغلبيّة عندما نشأ مركز للتّرجمة والدّراسة برقّادة بتشجيع من الأمير إبراهيم بن الأغلب الثّاني في النّصف الثّاني من القرن 9/3 . وكان هو نفسه مولعا

بالعلوم العقليّة والرّياضيّة والطّبّيّة مستقطبا ببلاطه بعض العلماء المختصّين فيها، حتّى أنّ بعضَ المؤرّخين ذهب إلى تسمية هذا المركز ببيت الحكمة القيرواني على غرار بيت الحكمة ببغداد. والطّريف في هذا المركز أنّ التّرجمة فيه كانت تتمّ من اللاّتينيّة إلى العربيّة. وهي بذلك تكون مكمّلة لحركة التّرجمة بالمشرق، ذلك أنّ التّرجمة ببغداد كانت عن اليّونانيّة أو السّريانيّة أو الفارسيّة أو الهنديّة إلى العربيّة. وخيرُ مثال على ذلك التّرجمةُ عن اللاّتينيّة لكتاب بلينوس Plinus في علم النّبات وكتاب سانت جيروم Saint Gérom في تاريخ الأمم القديمة.

ويبدو أنّ هذا المركز رسّخ من التّقاليد العلميّة بإفريقيّة ما جعل تأثيره يستمرّ بالقيروان بعد زواله فنشأت مدرسة الطّبّ الشّهيرة بالقيروان.

لم تنطلق مدرسة الطّبّ القيروانيّة من الصّفر بل استــفادت من كامل المراحل التي قطعها الطّبّ العربي في المشرق وخاصّة في عهد المأمون بعد ترجمة كتب أبقراط ومؤلّفات جالينوس. وقد كان لتشجيع أمراء بني الأغلب من جهة وللعلاقات السّياسيّة الممتازة بين بغداد والقيروان من جهة أخرى أثره في تدعيم هذا الحوار الحضاري بين العالم العربي شرقيّه وغربيّه : ففي سنة 887/264 وصل إلى القيروان من بغداد وباستدعاء من إبراهيم الثّاني، إسحاقُ بن عمران. ويعتبر هذا الطّبيب مؤسّس المدرسة الطّبّية بالمغرب. وكان لتجربته البغداديّة أثرها في المدرسة القيروانيّة. ثمّ جاء إلى القيروان الطّبيبُ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي من مصر، فزاد المدرسة القيروانيّة إثراءً وتفتّحًا على المدرسة الطّبّيّة المصريّة.

وفي أحضان هذه المدرسة الإفريقيّة متعددة التّجارب نشأ وتكوّن ابنُ الجزّار أكبَرُ طبيب عرفه المغرب خلال القرن 10/4.

وكان لهذه المدرسة تأثيرها لا فقط في العالم الإسلامي شرقيّه وغربيّه، وإنّما انتقل إلى الضّفّة الشّماليّة للبحر الأبيض المتوسّط عن طريق البوّابتين الرّئيسيّتين للعلم

العربي في القرون الوسطى : صقليّة والأندلس. ففي دَيْر مُونْتي كَسِّنُو بصقليّة ثمّ فيما بعد في جامعة سلارنو Salerno قام قسطنطين الإفريقي القرطاجنّي الأصل والمولد، القيرواني النّشأة والدّراسة بنقل آثار هذه المدرسة الطبّيّة القيروانيّة إلى اللاّتينيّة ونسب – سامحه الله – بعضها إلى نفسه: نقل كتاب « الماليخوليا » لإسحاق بن عمران وكتاب « الأغذية والحمّيات » لإسحاق بن سليمان وكتاب « زاد المسافر » لابن الجزّار. وقد تُرجم هذا الكتاب ومؤلّفه على قيد الحياة. كما تولّى اسطيفان السّرقسطي ترجمة كتاب « الاعتبار » لابن الجزّار إلى اللاّتينيّة ونقله موسى بن طيّبون الأندلسي إلى العبريّة. كما نقل هذا المُترجم كتاب « زاد المسافر » إلى العبريّة. وكان هذا الكتاب قد وصل إلى الأندلس وابن الجزّار مازال حيّا عن طريق تلميذه ابن بريق.

وفي صقليّة التّابعة ثقافيّا وفكريّا إلى القيروان أوّلا، ثمّ بعد انتقالها إلى الغرب المسيحي تواصل النّشاط الفكري والعلمي بعاصمتها بالرمو. واحتفظ حكّامها في بلاطهم بخيرة العلماء المسلمين من أمثال الشريف الإدريسي ، صاحب كتاب « نزهة المشتاق »، فتواصل إشعاع الحضارة العربيّة الإسلاميّة بها. ولقد كان بلاطها صورةً للبلاطات العربيّة في سلوك ملوكها وأمرائها، في مأكلهم وملبسهم، في عاداهم وتقاليدهم. وجسّم كلّ ذلك صورة مشرقة للحوار الحضاري بين الهلال والصّليب أنقصت – ولو نسبيّا– من لغة التّخاطب بالسّيف في ذلك الوقت.

وفي المحطّة القيروانيّة هناك التّراث الأدبي وخاصّة في العصر الصّنهاجي، بفرعيه: الخلق والابداع والنّقد والتّحليل. أمّا الفرع االأوّل وهو الخلق والابداع فقد كان مع الثّالوث القيرواني ابن رشيق وابن شرف وعلي الحصري. وكان للتّجربة المؤلمة التي عاشها هذا الثّالوث في مدينتهم القيروان بعد خرابها على يد الهلاليين في منتصف القرن 11/5 مجالٌ لتفتّق قرائحهم عن شعر إنسانيّ خالد قلّ نظيره في الأدب العربي تردّد صداه

شرقا وغربا. وكان لانتقال هؤلاء الشّعراء وبعض العلماء من القيروان بعد انفراط عقدها إلى صقليّة والأندلس عَامل في إثراء السّاحة الأدبيّة والفكريّة بتلك الرّبوع.

أمّا المجال الثّاني وهو النّقد والتّحليل فقد مهّد إليه بقيران المعزّ الصّنهاجي أمثال عبد الكريم النّهشلي وإبراهيم الحُصري في أوائل القرن 11/5، وأتى أكلَه على يد تلميذهما ابن رشيق في مؤلّفاته: العمدة في نقد الشّعر، وقراضة الذّهب وتفكيره في عمليّة الخلق الشّعري، وأنموذج الزّمان وتطبيقاته للنّظريّتين السّابقتين على شعراء عصره. وتجلّى بذلك « أنّ النّقد الأدبي عند العَرب ليس ما قصده ابن سلام وأخطأ، ولا ما رامه أيّمة اللغة الذين طغى عليهم ولعهم بالغريب، ولا محاولة قدامة ابن جعفر إخضاع الشّعر العربي لقواعد الشعر اليوناني، ولا موازنة الآمدي أو وَساطة الجرجاني لضيق موضوعهما، ولا تحجير هذا الفنّ والخروجَ به إلى البلاغة عند العسكري »[1]. وإنّما النّقد الأدبي الحقّ ما أنجزته المدرسة القيروانيّة، وكان له تأثيره في خلق حوار جديد حول البلاغة العربيّة وإن لم يكتب له النّجاح قديما، فقد أُعيد له الاعتبار مع الدّراسات اللّغويّة المعاصرة شرقا وغربا وعلى ضفّتي المتوسّط جنوبا وشمالا.

3- **محطّة تونس** : لمّا أَفَل نجمُ القيروان بعد خرابها على يد الأعراب بدأت مدينة تونس في نهاية القرن 11/5 وبداية القرن 12/6 تستعدّ لتصبح عاصمة إفريقيّة. وفي نظرنا هناك عاملان أساسيّان في الازدهار الثّقافي والحضاري الذي عرفته تونس منذ أن أصبحت مركز الثّقل السّياسي مع بني خراسان بداية من القرن 12/6 وخاصّة مع الدّولة الحفصيّة في بداية القرن 13/7. وهذان العاملان هما:

أ- استقرار الدّولة وتوحيد البلاد تحت حكم مركزيّ قويّ هو الدّولة الحفصيّة.

---

(1) قرافة الذّهب : تحقيق الشاذلي بو يحي ص 6 .

ب- وصول المهاجرين الأندلسيين إلى تونس. وكان أغلبهم من الأدباء الكبار والكتّاب المهرة والعلماء المحنّكين والإداريين الأكفاء. لقد غنمت الإدارة الحفصيّة من خدمات هؤلاء الأندلسيين الكثير. وتحرّك النّشاط الثّقافي في نطاق المعرفة التّقليديّة فتجدّد رسم المدرسة المالكيّة بإفريقيّة مع ابن عرفة وأمثاله، وراجت سوق الأدب شعرا ونثرا في ظلّ بلاط الحاكم الحفصيّ المشجّع. وتجدّد عمران المدينة واتّسع حتّى أخذت مدينة تونس تقريبا شكلها الحالي في مستوى المدينة العتيقة.

لقد أكّد الأستاذ هشام جعيّط في مقال له عنوانه :« ثقافات المغرب ص65 » أنّ هذا الازدهار الثّقافي والتّوسّع الحضاري نسبيّا، الذي بدأ في نهاية القرن 10/4 سيستمرّ إلى القرن 15/9. وممّا يؤكّد هذا الرّأي في هذه الفترة ظاهرة ابن خلدون، فقد اهتدى إلى قوانين التّطوّر التّاريخي ودَحض فكرة الاتّفاق والمُصادفة وحَدّد بدقّة متناهية الرّوابط القائمة بين المؤسّسات الاجتماعيّة والسّياسيّة وبين الواقع المَادّي وخاصّة منه الاقتصادي. ومع الأسف لم يكن لهذا الاكتشاف أيّ تأثير في البلدان العربيّة. بينما كان بالنّسبة إلى المحافل العلميّة الأوروبيّة الفتيل الذي أنار وفجّر أبحاثا أخرى ومعارف شتّى.

وكانت ظاهرة حازم القرطاجنّي الأندلسي في مجال النّقد الأدبي: فقد أعرض عن التّراث العربي البلاغي وقد جَمَد، وذهب للغوص في التّراث اليوناني ليستقيَ منه ما يمكن تطبيقه على الشّعر العربي.

وكانت ظاهرة المدرسة الطّبيّة التّونسيّة (نسبة إلى تونس العاصمة). فقد كان لتراجع مَوجة التّسامح بصقليّة بعد العهد النّورماندي أثره في هجرة العلماء المسلمين منها إلى شمال إفريقيا. فكان هذا أحد العوامل في نشأة المدرسة الطّبيّة التّونسيّة التي، وإن كانت أقلّ إشعاعا من المدرسة الطبيّة القيروانيّة سابقا، فإنّ آثارها – وأغلبها مخطوط- تدلّ على أنّ الحركة العلميّة بإفريقيّة لم تَخْمُد جَذوتُها في هذه الرّبوع.

لكن هذا الازدهار الحضاري النّسبي ستُخمد أنفاسه حسب الأستاذ جعيّط في القرنين 16/10 و17/11 نتيجة للزّحف الإسباني وما تبعه من غزو تركي للإيالة ليعود مع استقرار الدّولة الحسينيّة في القرن 18/12 و19/13 باهتا خافتا في نطاق حركة ترميميّة للتّراث الحفصي تقوم أساسا على المجالين الدّيني والأدبي. ولّما وقع الاحتكاك بالغرب كان البون شاسعا على المستويين الحضاري والثّقافي بين الإيالة وبينه ممّا أدّى إلى خراب الدّولة ومؤسّساتها عندما حاول بعض البايات التّشبّه بالغرب المتقدّم دون رويّة واتّزان.

ورغم ما يلوح من تشاؤم في هذا الرّسم البياني للحياة الفكريّة بإفريقيّة، فقد برز في هذه الفترة الطّويلة نسبيّا نشاطٌ حضاريّ ماديّ بعد حلول الأندلسيين في هجرتهم الأخيرة إلى بلادنا، لقد أخذت الفلاحة منطلقا جديدا على أيديهم كما أنّ بعض الصّناعات التّقليديّة في المأكل والملبس والبناء تطوّرت وازدهرت: فكان هذا حوارًا حضاريّا مثمرًا بين إفريقيّة والأندلس، ويكفي للتّدليل على ذلك الشّاشيّة التّونسيّة التي غزت أسواق العالم الإسلامي شرقا وغربا في ذلك الوقت.

لكن مع ذلك يبقى هذا السّؤال: لماذا كتب على هذا التّراث الإفريقي بصفة خاصّة والتّراث العربي الإسلامي بصفة عامّة الخمولُ بعد النّشاط والرّكودُ بعد الحيويّة والخفوتُ بعد التّوهّج؟

وللإجابة عنه لا بدّ من التّذكير أنّ من أوائل من فهم سرّ هذا الرّكود هو العلاّمة ابن خلدون. فقد لاحظ في نهاية مقدّمته أنّ المشعل الحضاري انتقل من الضّفّة الجنوبيّة للبحر الأبيض المتوسّط إلى الضّفّة الشّماليّة منه، وذلك بانتقال العلوم العقليّة الفلسفيّة إلى هذه الضّفّة ورواجها بين ظهرانيها. وهذا المشعل المُضيء ليس هو مصباح علاء الدّين تسيّره قوى سحريّة خفيّة وإنّما هو مصباح وَقوده القوى العقليّة، ونوره المنهج التّجريبي، وميدانه العلوم الطّبيعيّة.

واعتمادًا على العقل برزت في المشرق العربي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة حضارةٌ عالميّة مزدهرة متفتّحة: قوامُهَا تَوْقٌ للمعرفة شديد من طرف المسلمين بمختلف أجناسهم، وتسامحٌ قلّ نظيره من الدّين الإسلامي، ومُرونةٌ عجيبة من اللغة العربيّة. لكن ما إن بلغت هذه الحضارة الأوج حتّى وُضعت البذرةُ الأولى لجمودها وركودها فقد تمّ القضاء على النّزعة العقليّة المتفتّحة وذلك بمقاومة الفقهاء لمذهب المعتزلة العقلاني. وكان غارس هذه البذرة هو أبو الحسن الأشعري (ت 935/324). ومع أنّ هذا العالم كان معتزليّا في أوّل أمره. فقد انقلب ضدّهم وقاوم أهمّ مبدإ من مبادئهم وهو القول بفصل العلم الإلاهي عن العلم الدّنيوي. ونادى بوجوب أن تبقى العلوم الإلاهيّة والدّنيويّة تحت مظلّة الدّين معا. ونَفى وجود قوانين طبيعيّة يَسير بمقتضاها الكون لأنّ ذلك يؤدّي – حسب زعمه- إلى مخالفة ما ورد في القرآن. وجاء الغزالي في القرن 11/5 ودعّم هذا الاتّجاه الغريب المُنافي لروح الإسلام وجوهره. وأكّد هذا المتصوّف على أنّ الظّواهر الطّبيعيّة تسير حسب إرادة الله الذي يستطيع في كلّ وقت تغييرها. وبراهين العلماء لا تدلّ على شيء، ولا تثبت شيئا، وإنّما تزرع الشّكّ في عقول المؤمنين لذا وجب طرحُها أصلا.

هكذا وجدت النّبتة الأشعريّة تربَةً خصبة مع الغزالي فكان دخول العالم الإسلامي في حالة ركود ثقافي وجمود حضاري من الباب الكبير لأنّه الآلة المبدعة وهي العقل وقع تعطيلها.

وفي إفريقيّة هيّأ المناخ لقبول هذا الاتّجاه سحنون بمقالاته في التّعصّب ضدّ مخالفيه في الرّأي من المذاهب الأخرى، وفي تشبّثه المطلق بالنّقل دون العقل. وهكذا حوصر الفكر بإفريقيّة بين مطرقة الأشعري وسندان سحنون فتهيّأ المُناخ لبروز العقليّة الخرافيّة والتّفسيرات الغيبيّة للظّواهر الطّبيعيّة. وقد وجدت هذه العقليّة في أعشاش الطّرق والزّوايا خلال القرون الوسطى الرّعايةَ والعنايةَ بتشجيع من السّلط السّياسيّة

والدّينيّة، ثمّ بعد ذلك الاستعماريّة فباضت وفرّخت: فكان الخمول والتّواكل وكان الانحطاط والتّدهور.

وهكذا مرّ التّراث العربي بإفريقيّة باعتباره جزءا من التّراث العربي الإسلامي بفترتين :

- فترة ازدهار تلقّاها الغرب بإعجاب وانبهار واستفاد منها.
- فترة اندحار تلقّاها الغرب باشمئزاز واحتقار واستغلّها.

لقد ولّدت الفترة الأولى في الغرب لهفة على هذا التّراث ورغبة فيه، فكانت نهضته وتطوّره. وولّدت فيه الفترة الثّانية كبرياء المتفوّق وغطرسة المنتصر، فكانت سيطرته واستعماره، فتكرّست القطيعة بين الشّرق الرّوحاني الضّعيف والغرب العقلاني القويّ. فإذا كنّا نريد لهذا التّراث أن يكون عاملا في ترسيخ الحوار الحضاري والثّقافي بين الشّعوب وبالتّالي في تقليص الهوّة بينها يجب أن ينظر إليه الغرب بدون أحكام مسبقة وبموضوعيّة تعطي كلّ ذي حقّ حقّه في نسبة الاكتشافات العلميّة إلى أصحابها الحقيقيين في كتبهم وموسوعاتهم باعتبار الحضارة صَرحا تَبنيه الأمم قديمُها وحديثها ضعيفها وقويّها منذ أقدم العصور.

أمّا أصحاب هذا التّراث فعليهم أن يدرسوه، بعد تحقيقه تحقيقا علميّا، بنظرة نقديّة فاحصة ومناهج علميّةٍ متطوّرةٍ لإبراز ما فيه منْ عناصِر إيجابيّةٍ نستفيد منها، والتّنبيه إلى ما فيه من عناصرٍ سلبيّة نتجنّبها. لقد ولّى عهد الانطواء والانغلاق بعد أن أصبح العالم قرية كبيرة بهذا الانفجار المعرفي والتّقني. ولابدّ لنا من المحافظة على المميّزات الإيجابيّة في تراثنا التي نعتزّ بها لأنّها جزء من هويّتنا وخصوصيّتنا أن نتفتّح على العالم الخارجي ويكون لنا دور في المجال المعرفي والتّقني بدون مركّبات. ألم يكن المنهج العلمي التّجريبي العقلاني الذي أخذته أروبّا في القرون الوسطى من تراث الحضارة العربيّة الإسلاميّة سببًا في نهضتها؟ إنّ هذا وحده كافٍ لطرح ما عَلق

بالنّفوس من عُقد ومن غطرسة لهذا الطّرف أو ذاك لتمتدّ الأيدي بتسامح وتواضع للوصول إلى ما وراء العرش. إنّه لابدّ ليكتب للحوار الاقتصادي والحوار السّياسي النّجاح من تواجد سند ثقافي يُثري جوانب الاتّفاق ويُقلّص من عوامل الاختلاف. والتّراث في نظرنا جَوهرُ هذا السّند الثّقافي إذا استعملنا العقل فيه فعرفنا كيف نتعامل معه، وكيف نُحييه ونقدّمُه، وكيف نستغلّه ونستفيدُ منه.